التاريخ وما قبله... رحلة توثّقها موسوعة الآثار في سورية

توثيق الآثار والتحف وكل ما هو نفيس عمل جاد ومستمر لتدارك الدمار الجاهلي

فخاريات سورية

من آثار أفاميا

البقايا الأحفورية ومراحل التطور الإنساني عماد موسوعة الآثار

سوسن صيداوي

التوثيق لكل ما هو حضاري وأثري أمر مهم بل هو من الأعمال الصعبة التي تتطلب جهدا وبحثا يكون معهما الوقت والصبر عاملان مهمان للوصول إلى الغاية المطلوبة، وطبعا استطاعت موسوعة الآثار في سورية في الوصول إلى مرحلة الإنجاز بإصدارها المجلد الثاني والذي يعتبر شاملاً لكل ما يخطر على البال من آثار ومواقع وحتى أوابد شهدها تاريخ بعيد عنا أو مواقع ما زالت حاضرة لتشهد على عظمة تاريخ أو حقبة زمنية عاصرتها، وكل هذا الفيض الشامل من الأماكن والمفردات والآثار وغيرها جمعته الموسوعة وفق تسلسل أبجدي سلس، وعندما يقلب كل منا في صفحاتها سيكتب لنفسه رواية، وبالنسبة لي لن أتّبع التسلسل الأبجدي الذي وظّفته الموسوعة في مجلدها الثاني بل سأسلسل من خلالها ما لفتني من شموليتها ودقتها.

حرف الألف... إنسان

أول ما بدأت بالتقليب في صفحات الموسوعة لا أخفي بأنني شعرت بضيق وبملل وخصوصاً أنها تضمنت كل تفصيل صغير أو كبير إضافة إلى الأشخاص العاديين، وقاب قوسين غير المهتمين لن تعنيهم بعكس الاختصاصيين والمهتمين، ولكن بعد المرور بعدة أقسام بدأت المتعة، فمن بين ما تضمنته الموسوعة هو «الإنسان» فعلى الرغم من أن البشر نوع واحد إلا أن شغف العلماء دفعهم إلى دراسة هذا الكائن «الإنسان» باعتباره في نظرهم كائناً معقداً، والجميل أن الموسوعة قامت بذكر لما يمكن أن يسمّى أسلاف البشر من خلال بعض البقايا الأحفورية التي عثر عليها في العديد من المناطق والأنحاء، كما شرحت مراحل التطور الإنساني واصفة حياته ونشاطه مع تنّقلاته وتأثيرها عليه إضافة إلى التنافس على مصادر الغذاء واستطاعته التكيف مع البيئة وتطوير أدواته، انتقالا إلى مراحل متقدمة جداً وكيف صنع هذا الإنسان نفسَه حضارات وبحسب التسلسل الأبجدي في الموسوعة كان فيها العديد وعلى سبيل المثال ذكرت الحضارة الآشورية والحضارة الآكادية مستعرضة تسلسل ملوكهم وفتوحاتهم مع تقاليد وعادات مجتمعهم واللغة السائدة وقتها، والذي جمع بين هاتين الحضارتين اللغة الآكادية التي كانت مستعملة طوال التاريخ الأشوري لما يقرب من أربعة عشر قرنا، كما أوضح الخبراء في الموسوعة بأن مصطلح «الآكاديين» أطلق على شعب الدولة الآكادية التي دام حكمها نحو مئة وثمانين عاماً بين عامي ٢٣٣٤-٢١٥٤ قبل الميلاد.

صراع الحضارات

ومن الجوانب التي سلّطت عليها الموسوعة الضوء وكانت معنية بذكرها هي بعض المعارك والأحداث التاريخية العالمية التي رافقت تطور الحضارات وانتشارها في الأصقاع، وحسب التسلسل الأبجدي جاءت على ذكر معركة «أكتيوم» وهي إحدى أشهر المعارك في التاريخ الروماني ومن أعظم المعارك البحرية في العصور القديمة، وهي المعركة التي شكّلت منعطفا مصيريا في تاريخ الحروب الأهلية والرومانية ومهّدت السبيل لقيام النظام الإمبراطوري على يد القائد المنتصر، كما أنها أدت للقضاء على المملكة البطليمية وضمها إلى الإمبراطورية الرومانية، حيث جرت عند رأس «أكتيوم» على الشواطئ الغربية لبلاد اليونان المقابلة لإيطاليا بين القائدين الرومانيين «أوكتافيانوس أغسطس» و«ماركوس أنطونيوس» ومعه ملكة مصر البطليمية «كليوباترة».

حتى الألقاب... في موسوعة الآثار السورية

الشمولية هدف سعت الموسوعة جادة ليكون واضحاً في إنجاز صفحاتها وربما في تحقيقه وهو بالتالي دليل على جودة العمل ومهنيته، ولذلك نلاحظ أنها أفردت بين طيات صفحاتها الغنية تعريفا لسلوك اجتماعي اعتاد عليه البشر على الرغم من تنوع الحضارات واختلافها من حيث العادات والتقاليد والثقافة وحتى اختلافها من حيث الزمن، هو منح اللقب، والذي هو اسم يسمى به الإنسان، غير اسمه الأول، للتعريف والتشريف أو التحقير، كما أوضحت بأن اللقب في الحضارة الإسلامية استعمل في موضع النعت الحسن وميزوا في هذه الفترة الألقاب التي كانت ترد بصيغة المفرد أي التي تكون من لفظ واحد مثل: الفاضل والشيخ، وميزوا بين الصفات التي كانت تأتي على صورة تراكيب أي تتكون من أكثر من لفظ وسمّوها نعوتاً مثل: مولى أمير المؤمنين، نصر الإسلام والمسلمين، كما أشارت الموسوعة إلى أنواع أخرى من الألقاب مثل ألقاب السلطة ومنها: السلطان / سيدنا /مولانا/ الملك، كما ذكرت ألقاب الوظائف مثل: أمير المؤمنين /البطريرك/ أمير أخور/ النائب/ القاضي / الوزير/ الجندي..... وغيرها الكثير.

ألف... إكليل

لم تستثن الموسوعة أي شيء حتى إنها جاءت على ذكر «الإكليل» وهو التاج الملكي المعمول من أزهار أو أوراق طبيعية أو صناعية تزين الرأس، وقد وثّقت الموسوعة هذه الأكاليل ونذكر على سبيل المثال: في الفترات الكلاسيكية إكليل النصر المتعدد الأصناف هو إكليل من أوراق الغار من دون ثمار، أو من الذهب وله أوراق اصطناعية، أو من الذهب الخالص، كما ذكرت الموسوعة أنواعا أخرى منها: إكليل الزيتون الذي كان يُعطى للجنود أو قادتهم الذين حققوا انتصاراً ما، وأيضاً إكليل الريحان وهو من أوراق الريحان يكلّل به ضابط حصل على شرف تكريم الناس المرافقين له، وأيضاً الإكليل المشع وإكليل العيد وإكليل الزهر.....

الأغباني... حرفة

تطرّق المجلد الثاني في الموسوعة إلى الصناعات اليدوية التراثية موثقا إياها لتأكيد أهميتها وجماليتها، منها «الأغباني» وهي حرفة دمشقية الأصل و«الأغباني» هو نسيج أبيض يُطرّز بالحرير الأصفر وكان سابقا يُصنع من الحرير الطبيعي، ومنذ أكثر من خمسمئة عام كان حرفيو «الأغباني» في دمشق يطبعون النسيج على الحجر والرمل، ومع تطور الزمن أصبحوا يستخدمون النحاس على شكل قوالب وصولا إلى قوالب الخشب وأصبحت مؤخراً تُنتج بوساطة الحاسوب، كما تطرّقت الموسوعة إلى أنواع أخرى من «الأغباني» التي تصنف حسب المنطقة منها: الأغباني الفلسطيني والأغباني اليبرودي.

الإفريز في... تدمر

التنوع هو صفة كانت حاضرة في الموسوعة ففي بحثها في قسم « الإفريز» وهو الجزء الذي يتم تشييده في بناء العمائر والأبنية تخليدا للأحداث وانتصارات الحروب والأساطير ويكون على هيئة حافة أو شريط أفقي مزخرف، تحتل «الأفاريز» الدرجة نفسها في المكانة والأهمية حتى في المعابد الرومانية حيث لوحظت بتنوعها بمواضيعها الهندسية والنباتية والإنسانية كما في مدفن «إيلا بل» البرجي في تدمر وفي مدافن تدمر كمدفن « جمبليك « البرجي، وواجهة مسرح تدمر وأقواس النصر التي تحتوي على أنواع مختلفة من النقوش متمثلة بأوراق نباتية إضافة إلى أشكال الزهور وغيرها من الحلي الصنوبرية.

أفاميا... حاضرة

برزت أفاميا في العصر الروماني لأهميتها العسكرية والاقتصادية والدينية والثقافية وهي من أشهر المدن الأثرية في العصور الكلاسيكية واستعرضت الموسوعة السورية الآثار المهمة فيها ومنها: السور، شارع الأعمدة الكبيرة، معبد الحويات، الحمامات الكبرى... إضافة إلى ما كتبه عنها المؤرخون والجغرافيون والرحالة.

المسجد الأقصى... هنا

العالمية كانت موجودة ضمن التسلسل الأبجدي للموسوعة في توثيق كل ما هو أصيل وكل ما هو جميل وكل ما هو دليل على أن هذا الجزء كان من حضارة مزدهرة في يوم ما، لهذا كان للمسجد الأقصى ركن واضح في الموسوعة سواء من حيث موقعه الجغرافي أو التاريخي، وتشير الموسوعة وبحسب الروايات التاريخية إلى أنه في موقع هذا المسجد كان الخليفة عمر بن الخطاب قد أمر ببناء أول جامع للمسلمين في القدس وسمي بالجامع «العمري»، ثم قام الخليفة عبد الملك بن مروان ببناء المسجد الأقصى في مكانه مستقدما أمهر البنائيين والفنانين.

الفخار... في سورية أولا

من المواقع الأثرية التي تم تسليط الضوء عليها في الموسوعة هو موقع «تل أسود» الواقع على الضفة الشرقية من نهر البليخ ويبعد ٨٠ كم شمالي الرقة، وبالمقارنة مع المواقع من الناحية الزمنية التي يجري فيها، فإن «تل أسود» أول موقع في المنطقة أُنتج فيه الفخار إذ لم يُكتشف حتى الآن موقع من العصر الحجري الحديث قدّم فخارا في زمن متقدم على زمن تل أسود وهناك افتراضات تجعل منه المهد الأول لصناعة الفخار، في حين هناك من يعتقد أنه المركز الرئيسي لإنتاج الفخار وأنه قام بتزويده لمواقع أخرى.

في الختام

حرف الألف طويل وفيه لا يزال الكثير والكثير، وما جاء كان على سبيل الذكر البسيط للتركيز على نقطتين الأولى هي جودة العمل في موسوعة الآثار في سورية والمهنية العالية فيها، أما النقطة الثانية فهي لأهمية ما تم ذكره مما هو ماض وحاضر لدينا ولتأكيد أهميتنا في سوريتنا.

سياسة الموت الرحيم فهل هناك موت رحيم فعلاً؟

عندما تصبح الحاجة إلى الرحيل ضرورة

ديالا غنطوس

لا بد أن معظمنا قد سمع عن سياسة الموت الرحيم التي يتبعها كثير من الدول لإنهاء حياة مريض ما، حين يعجز الطب عن إيجاد حل لمشكلة صحية يعاني مريض منها، على أن يحظى قرار إنهاء حياته بموافقته إن كان واعياً أو موافقة أفراد عائلته كبديل، وحتى الساعة ما زال الموت الرحيم محطاً للجدل، بين الدين والعلم، بين الحلال والحرام، بين الأمل واليأس، بين راغب في التمسك بآخر خيوط الحياة وزاهد فيما تبقى من أيام لا تجدي نفعاً.

البعض يرى أن له الحق في إنهاء حياته أو حياة أحد يحبه إذا ما وجد أن تلك الحياة لم تعد تمنّ على صاحبها بالصحة، وإذا ما استبدّ المرض وفتك بالجسد، يوجَد المسوّغ لمهمة الموت الرحيم المتمثلة بجرعة من الموت عبر حقنة تضخ في جسم المريض، فتأخذ روحه شيئاً فشيئاً وتصعد إلى خالقها مطمئنة أن لا ألم بعد اليوم، ومن جانب آخر يقول آخرون إن لا أحد مطلقاً يملك حق إنهاء حياة أحد، فالروح لا نملكها نحن بل الله هو الذي يهب وهو الذي يأخذ، هو من ينفخ الروح في الجسد ويستعيدها متى شاء، وعلى هذا تباينت الآراء وتبقى سياسة الموت الرحيم مسألة جدلية كبرى لم تجد جواباً حتى اللحظة.

كما عودتنا السينما العالمية، فإنها وضعت هذه المسألة الجدلية تحت مجهر النقد، وناقشت أسبابها ودوافعها آخذة بالحسبان أبعادها ومحاذيرها وتبعاتها كافة، وهذا ما راعاه المخرج المبدع بل أوغست في فيلمه الدنماركي «قلب صامت Silent Heart» الذي أطلقه عام ٢٠١٤، الذي يحوي مشاعر مختلطة ومعقدة ومؤثرة تدفعنا للتفكر ملياً قبل إطلاق أحكامنا، تنحصر فكرة الفيلم المكتمل الأركان حول دعوة السيدة إيستر وزوجها بول لابنتيهما وحفيدهما والشابين المرتبطين بالابنتين وإليزابيث صديقة إيستر لحضور حفلة منزلية مصغّرة تقام لوداع إيستر، التي اتخذت قرارها بموافقة جميع هؤلاء بأن تنتحر في المنزل يوم الأحد خلال تلك الحفلة، وقد أتى هذا القرار إثر إصابتها بشلل في يدها اليسرى ناتج عن مرض ميئوس من علاجه، وستتسارع مضاعفاته ليؤدي إلى شلل في الأطراف كافة وضمور كل العضلات وانعدام القدرة حتى على البلع، ما دفعها إلى استباق الأحداث بفكرة «الانتحار الرحيم» وهي ما زالت تمتلك بعضاً من قواها وبمباركة أفراد أسرتها. على الرغم من هذا القرار الجريء، إلا أن إيستر سيدة رقيقة جداً تتستر خلف قوتها الظاهرة، تخاف الموت مع دنو ساعة الانتحار، على حين تتباين مواقف أفراد العائلة وتختلف شدتها، فزوجها بول الطبيب وافقها بقرار إنهاء حياتها ليقينه بأن حالتها ستتفاقم سريعاً، مع أنه ترك لها فرصة للتراجع، كذلك ابنتها الكبرى هايدي احترمت قرار أمها وقبلت به على الرغم مما تعانيه من صراع داخلي ورغبة في الاحتفاظ بالأم في حياتها، أما الابنة الصغرى سانيف فيصيبها الاضطراب وتعيش النحيب لعدم استعدادها أبداً لفقدان والدتها التي تتكل عليها في أدق تفاصيل حياتها في الوقت الذي لا يمكنها الاعتماد على عشيقها دينيس المدمن على المخدرات، بينما يرى مايكل زوج هايدي أن من حق والدة زوجته أن تختار إنهاء حياتها لكنه ينأى بنفسه ويرفض إبداء أي رأي في أمر خاص كهذا، أما الحفيد المراهق فيتفهم قرار جدته مع انشغاله بعالم التواصل الافتراضي الذي يأخذ كل اهتمامه، على حين تعتري صديقتها إليزابيث مشاعر متأججة وهي تودع صديقتها التي تعتبرها جزءاً منها.

من فيلم «قلب صامت»

بحلول يوم الأحد، يجتمع المدعوون في المنزل، الذي يُطل عليه شبح الموت، وقد سعت إيستر لأن يكون الحفل أشبه بعشاء عيد الميلاد القادم الذي لن تكون حاضرة فيه، وسمحت لنفسها بتدخين الحشيش برفقة أفراد العائلة لخلق نوع من البهجة بُغية كسر الصمت المطبق، فنجحت بذلك وسادت أجواء الغناء والضحك، لم يفلح رفض ابنتها الصغرى سافي وبكاؤها في ثني الأم عن الاستمرار بقرارها والتراجع عنه، وينتهي الفيلم بانتهاء الحفل ومغادرة الضيوف للمنزل، بعد أن تناولت إيستر العقار القاتل من يد زوجها بول، الذي نراه وحيداً خارج البيت بعد أن انفضّ الجميع من حوله.

وكانت بوليوود قد طرحت قضية الموت الرحيم قبل ذلك في الفيلم الهندي «طلب Guzaarish» الذي أنتج عام ٢٠١٠، إنما بجرعة مضاعفة من المشاعر المنسكبة، يروي الفيلم مأساة شاب وسيم أمضى ١٤ عاماً أسير جسده المشلول دون قدرته على الإتيان بأي حركة، اعتمد طوال تلك المدة على ممرضته «صوفيا» التي تهتم بحاجاته اليومية كافة، بدءاً من مأكله وملبسه وانتهاءً بنظافته الشخصية، حتى إنها توفر له الدعم المعنوي فتقرأ له الجرائد وتدفعه لحب الحياة والشعور بقيمته الذاتية والتغلب على إعاقته، ساعدته في الحصول على عمل كمقدم برنامج في محطة إذاعية حيث يعتمد فيه على صوته الذي لم يتبق في جسده شيء يملكه سواه، بعد أن كان أعظم ساحرٍ في ماضيه، قبل إصابته بحادث مدبّر من صديقه المقرب الذي يغار من نجاحه، فسقط على رأسه أثناء أدائه إحدى فقرات ألعاب الخفة على المسرح ليصاب بشلل كامل، والآن بعد أن تملّكه السأم من حاله وعجزه ومن عيشه دون كرامة، وبعد عدة مواقف مؤلمة نشاهدها خلال الفيلم كان أحدها عندما حطّت ذبابة على أنفه ولم يتمكن من القيام بأي حركة لطردها، وفي موقف آخرٍ نراه ممدداً في سريره في ليلة عاصفة، فينضَح السقف وتتسرب الماء لتتساقط قطرة تلو الأخرى على وجهه، ويتسلل البرد إلى عظامه حتى كاد أن يتجمد طوال الليل دون أن يشعر به أحد، وليتخلص من عذابه، قرر إيثان التقدم بطلب إلى المحكمة العليا كي تأذن له بالموت الرحيم، لكن طلبه يواجه بالرفض لأن القانون الهندي يعتبر ذلك أمراً مخالفاً للتعاليم الدينية والمبادئ الأخلاقية، حينئذ لم يجد أحداً يلجأ إليه سوى ممرضته صوفيا، التي انفصلت عن زوجها وتخلت عن بيتها وحلم الأمومة في سبيل الاعتناء بإيثان الذي وقعت في غرامه طوال ١٢ عاماً دون أن تفصح بذلك لأحد سواه، منعها عشقها من خذلانه ولم تقو على رده خائباً، فوافقت على مساعدته لتحقيق رغبته في الموت الرحيم لكي تريحه من عذابه، بذلك اكتشف إيثان مقدار الحب التي تكنه له صوفيا وطلب منها الزواج، لاقى طلبه قبولها، أقام بعدها إيثان حفل وداع لأصدقائهما وأعلن للجميع عن العلاقة الغرامية التي تجمعه بصوفيا، مصرحاً بأنه الآن فقط سيغادر الحياة دون ندم وقلبه مملوء بحبه لصوفيا، وينتهي الفيلم على صوت ضحكاته التي تعلو فرحاً.

تلك الأفلام وسواها أظهرت قبولاً وتعاطفاً مع فكرة الموت الرحيم، إلا أن المسألة تبقى شائكة ومعقدة على الصعد الاجتماعية والدينية والنفسية، وكل منا يراها بحسب معتقداته وموروثه الفكري، لكن المثل يقول: «لا تحكم على حال لم تمرّ بها من قبل»، فالفارق بين تقبُّل الأمر ورفْضه يشبه تلك الشعرة التي تفصل بين غريزة البقاء التي تمنعنا من الاستسلام وتفضيل الموت بإباء درءاً للحظة الانكسار المحتمة.